٣ - حـــرب الاســـــتنزاف

وانتقلت قواتنا إلى مرحلة جديدة سميت « حرب الاستنزاف » وهى التى بدأت يوم ٨ مارس ١٩٦٩ وانتهت بمبادرة روجرر وزير الخارجية الأمريكية فى أغسطس ١٩٧٠ ، واستغرقت تلك المرحلة سنة ونصف السنة .

كانت مصر تهدف[1] من هذه الحرب إلى « إصابة آلة الحرب الإسرائيلية فى سيناء بقدر مؤثر من الدمار فى الأسلحة والمعدات والتحصينات فضلاً عن خسائر الأفراد ، يكون كافيا لاقناع إسرائيل بأن بقاءها فى الأرض العربية المحتلة سوف يكلفها ثمناً غالياً ، ليس فقط فى حجم الخسائر التى ستتكبدها ، وما لذلك من آثار نفسية سيئة على القوات المسلحة الإسرائيلية وعلى الشعب الإسرائيلى ، ولكن كذلك فى حجم القوات التى ستضطر إلى الاحتفاظ بها فى سيناء ، وما يتطلبه ذلك من استمرار التعبئة لفترات طويلة سوف تعكس بالضرورة آثاراً اقتصادية ضارة على المجتمع الإسرائيلى » .

أما عن الهدف المعنوى المباشر ، والذى كان يمثل أحد الأركان الأساسية لحرب الاستنزاف ، فهو إعادة الثقة للمقاتل المصرى فى نفسه وقيادته وسلاحه ، فضلاً عن تحسين قدراته القتالية ورفع مستوى أدائه الميدانى . وبمعنى آخر « تطعيم القوات للمعركة » ، وهذا يتم ببث الروح الهجومية فى القوات وتدريبها عمليا على عبور القناة وقتال العدو وقهره فعلاً .

---

(١) طه محمد المجدوب - هزيمة يونيو . من النكسة حتى حرب الاستنزاف - ص ١٧٨

أما الجانب السياسى لحرب الاستنزاف ، مع استمرارها وقتاً طويلاً ، كانت رسالة حية مستمرة لكل العالم أن مصر ودول المواجهة لم تنس أراضيها العربية المحتلة ، وأنها ستعمل بكل الوسائل على تحرير أراضيها - إن لم يكن بالوسائل السياسية - فبقوة السلاح .

□ □ □

افتتحت مرحلة الاستنزاف يوم ٨ مارس ١٩٦٩ بقصف مركز من المدفعية المصرية ضد تحصينات ومواقع العدو التى أقامها الجنرال حاييم بارليف رئيس الأركان الإسرائيلى على الضفة الشرقية للقناة . استمر الاشتباك بالنيران لمدة حوالى خمس ساعات ، تمكنت فيها القوات المصرية من تدمير جزء من مواقع العدو واسكات بعض مواقع المدفعية .

توجه صباح اليوم التالى - ٩ مارس ١٩٦٩ - الفريق عبد المنعم رياض رئيس الأركان إلى الجبهة ليشاهد بنفسه نتائج قتال اليوم السابق ، ويكون بين القوات فى فترة جديدة تتسم بطابع قتالى عنيف ومستمر لاستنزاف العدو . وأثناء مروره ، ومعه اللواء عدلى حسن سعيد قائد الجيش الثانى ، على القوات فى الخطوط الأمامية شمال الاسماعيلية ، أصيب الفريق رياض إصابة قاتلة بنيران مدفعية العدو أثناء الاشتباك بالنيران ، بينما أصيب قائد الجيش إصابة أقل خطورة ولكن حالته الصحية استدعت عمل أكثر من عملية جراحية واحدة له . وأثناء نقلهما إلى مستشفى الاسماعيلية ، كان الفريق عبد المنعم رياض قد فارق الحياة . وكانت خسارة القوات المسلحة ، ومصر كلها ، باستشهاده كبيرة . فقد فقدنا قائداً عسكرياً متميزاً كنا فى أشد الحاجة إليه .

وخرج الشعب يودعه أثناء تشييع جنازته بكل التكريم والاحترام المملوء بالحزن العميق . ومنذ ذلك اليوم أصبح يوم ٩ مارس هو « يوم الشهداء » تعبيراً صادقاً عن الروح العسكرية المصرية ، التى تتطلب من كل قائد مهما كانت رتبته أن يضرب القدوة والمثل حتى الاستشهاد بين جنوده . وقد كان هذا المبدأ وهذه الروح واضحة بأجلى معانيها وصورها فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، حيث كان القادة قدوة لجنودهم واستشهدوا فى الخطوط الأمامية بينهم .

وبعد انتهاء حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وكنت أعمل رئيساً للأركان - اقترح الجهاز الإدارى المختص إطلاق « يوم الشهداء » على أحد أيام حرب أكتوبر الذى استشهد

فيه أكبر عدد من المقاتلين فى الحرب . وقد رفضت هذا الاقتراح على أن تفتتح احتفالات أكتوبر بزيارة قبر الجندى المجهول رمزاً لكل الشهداء فى كل الحروب ، أما يوم ٩ مارس فيظل تعبيراً عن الروح العسكرية المصرية التى تتطلب من كل قائد أن يضرب القدوة والمثل لجنوده فى الحرب حتى يستشهد بينهم .

ووافق الفريق أول أحمد إسماعيل على رأيى .

تعين اللواء أحمد إسماعيل رئيساً للأركان خلفاً للفريق عبد المنعم رياض . واستمرت حرب الاستنزاف فى تصاعد بين الطرفين ، وأصبح عبور مجموعات من قواتنا قناة السويس وخليج السويس أمراً عادياً ، وتعددت الأغارات والكمائن وأخذ عددها وحجمها يتزايد ويتصاعد بالاضافة للاشتباكات المستمرة بالنيران . وبعد أن كان القتال مركزاً فى جبهة القناة ، فقد امتد فى هذه المرحلة ليشمل منطقة البحر الأحمر . ويمكن القول إن الموقف العسكرى بين مصر وإسرائيل يزداد اشتعالاً يوماً بعد يوم ، وأصبح الطرفان يعيشان فى جو الحرب نهاراً وليلاً .

□ □ □

لقد تصاعدت[1] أعمال القتال على طول المواجهة تصاعداً خطيراً ، ومرت بعدة مراحل بلغت أربع مراحل ، اختلفت فى شدتها وفى نوعية الأسلحة المستخدمة وفى نوعية أعمال القتال وطبيعة الأهداف المختارة والنتائج التى انتهت إليها كل مرحلة من هذه المراحل . وقد أدى استمرار قصف المدفعية المصرية للمواقع الإسرائيلية والقوات المتمركزة على الضفة الشرقية للقناة ، إلى إحداث خسائر كبيرة بها الأمر الذى أرغم إسرائيل – مع إصرارها على البقاء فى سيناء – إلى سرعة تحصين الخطوط الدفاعية الأمامية بناء على خطة متكاملة لإنشاء خط قوى من النقط القوية والتحصينات ، وهو الخط الذى عرف باسم « خط بارليف » .

ولزيادة فعالية الضربات المصرية وتنمية الروح الهجومية فى القوات ، طورت القيادة المصرية من أساليبها ، بحيث تشمل – بجانب الاشتباك بالنيران – إغارات برية تعبر القناة لاستكمال ما بدأته المدفعية المصرية من تدمير ، وذلك بالاقتحام المباشر لها بواسطة الوحدات الخاصة ووحدات المشاة والمهندسين .

---

(١) المصدر السابق – ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

من ناحية أخرى تدرج حجم القوات المخصصة لشن الاغارات التى بدأت بمجموعات صغيرة من الأفراد إلى مجموعة أكبر . وقد بلغت عمليات العبور ذروتها ليلة ٩/١٠ يوليو ١٩٦٩ عندما عبرت كتيبة صاعقة إلى الضفة الشرقية للقناة فى مواجهة السويس ، حيث هاجمت قوة العدو الموجودة فى لسان بور توفيق وقتلت أفراده ودمرت معداته ، وعادت إلى الضفة الغربية ، وكانت خسائرها بعض الاصابات فى الأفراد دون استشهاد أى فرد منها . وقد أطلق على هذه العملية « معركة لسان بور توفيق » . وليس هنا مجال شرح معارك أخرى .

وكان للنجاح الكبير الذى حققته القوات المصرية ، والخسائر المتزايدة فى القوات الإسرائيلية ، نتيجة لنيران المدفعية المصرية التى لم تتوقف واستمرار عمليات العبور ومهاجمة المواقع الإسرائيلية ، أثره الكبير فى دفع إسرائيل فى يونيو ١٩٦٩ إلى إعادة النظر فى سياستها الحربية وتعديلها تعديلاً جذرياً بإحداث تصعيد خطير فى مسار حرب الاستنزاف ، وذلك عندما زجت بسلاحها الجوى وبكثافة عالية إلى معركة الاستنزاف . وبدأت فى ممارسة سياسة « الاستنزاف المضاد » ضد مصر وقواتها وأهدافها العسكرية والمدنية .

السلاح الجوى فى المعركة :

لقد قدرت اسرائيل أن أعمال القتال المصرية خلال الأشهر الخمسة الأولى من حرب الاستنزاف ، أصبحت نقطة تحول فى قدرات القوات المسلحة المصرية ، الأمر الذى تطلب من اسرائيل إعادة النظر فى سياستها العسكرية وأهدافها الاستراتيجية . وكان الغرض من ذلك تحقيق هدفين ، الأول هو تخفيض حجم الخسائر التى أرتفع معدلها فى الجبهة بشكل يؤثر على المجتمع الاسرائيلى . أما الهدف الثانى فهو عدم استدعاء أعداد أكبر من رجال الاحتياطى لخدمة العمليات تجنبا لتأثير ذلك على الحالة الاقتصادية بالدولة . ومن الطبيعى ، فإن تفادى الخسائر الكبيرة هو العامل المتحكم فى اتخاذ القرار بشأن أسلوب العمل الواجب اتباعه .

وأدركت اسرائيل أن استمرار هذا الموقف يعنى نجاح القوات المصرية فى استعادة الثقة بنفسها بخسائر قليلة مقابل خسائر أكبر نسبيا فى القوات الاسرائيلية . فضلا عن ذلك فإن النشاط الساخن فى الجبهة لا بد أن يستتبعه تأثير على الموقف السياسى .

ومن هنا أخذت اسرائيل فى البحث عن الوسائل الفعالة التى تضمن لها وضع حد لاستنزاف قواتها ، وفى نفس الوقت إضعاف نمو القوات المصرية ، وهذا يؤدى أيضا إلى استعادة المبادأة العسكرية إلى جانبها .

وكان القرار الذى وصلت إليه اسرائيل هو اقحام القوات الجوية فى حرب الاستنزاف ضد مصر . ومعنى ذلك ، الانتقال من أسلوب « الردع المحدود » بنيران الأسلحة البرية إلى أسلوب « الردع الجسيم » بسلاحها الجوى ، وهو قوتها الضاربة الرئيسيةالتى لم تستخدمها منذ حرب يونيو ، على أمل حسم الموقف لصالحها وإجبار مصر على إيقاف حرب الاستنزاف .

ويبدو من سير أعمال القتال أن القيادة الإسرائيلية حددت لنفسها هدفا إستراتيجيا هو تعطيل آلة الحرب المصرية وشل قدراتها على العمل الايجابى ، وفى نفس الوقت ممارسة ضغط معنوى على الشعب المصرى لإضعاف الجبهة الداخلية حتى يتم انهيارها .

وكان أسلوب استخدام السلاح الجوى الإسرائيلى ، هو القيام بهجمات جوية ضد أهداف منتخبة فى حرب جوية ممتدة تستمر فترة زمنية طويلة ، حتى يكون لها التأثير المطلوب .

وقد ساعد إسرائيل على إتباع هذا الأسلوب ، ما تملكه من الطائرات الفرنسية الحديثة من طراز السوبر مستير والميراج . بالاضافة لذلك كان هناك استمرار وصول واستيعاب الطائرات الأمريكية الحديثة من طراز سكاى هوك من صفقة عددها ٤٨ طائرة بدأت إسرائيل فى تسلمها منذ مارس ١٩٦٩ . كما كان من المتفق عليه أن ترسل أمريكا إلى إسرائيل صفقة من طائرات فانتوم ٤ A الأحدث ، بحيث تصل ٤ طائرات منها شهريا اعتباراً من شهر سبتمبر ١٩٦٩ .

أما قوات الدفاع الجوى والقوات الجوية المصرية ، فلم تكن قادرة فى ذلك الوقت على مواجهة السلاح الجوى الإسرائيلى ، نتيجة للسياسة التى اتبعها الاتحاد السوفيتى نحو مصر عقب حرب يونيو ، والتى كانت تقضى بعدم تزويد مصر بأسلحة هجومية تجعل لها التفوق العسكرى على إسرائيل . ولعلنا نتذكر أن الرئيس عبد الناصر فى مباحثاته مع بودجورنى فى يوليو ١٩٦٧ ، قارن بين الطائرات الإسرائيلية والطائرات

المصرية من حيث المدى والكفاءة ، وكان مطلب عبد الناصر حينئذ هو الحصول على طائرة سوفيتية قادرة على الوصول إلى عمق إسرائيل لمواجهة الطائرات الإسرائيلية القادرة على الوصول إلى عمق مصر ، إلا أن ذلك لم يتم . وظل هذا الوضع كما هو دون تغيير فى عهد الرئيس السادات إلى أن دخلنا حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

□ □ □

ولنا أن نتصور الموقف العسكرى فى الجبهة فى ذلك الوقت ، عندما بدأ الطيران الإسرائيلى اعتباراً من ٢٠ يوليو ١٩٦٩ فى قصف مواقعنا غرب القناة ، مع التركيز الشديد ضد مواقع الصواريخ المضادة للطائرات ومواقع المدفعية . ولم تتمكن قوات الدفاع الجوى والقوات الجوية من منع العدو من القيام بهذه الاغارات ، برغم جهودها فى ذلك وبرغم المعارك الجوية التى خاضتها قواتنا الجوية دفاعاً عن قوات الجبهة وتوجيه هجمات جوية ضد أهداف العدو فى سيناء . وإذا تصورنا الموقف العسكرى منذ ٢٠ يوليو ١٩٦٩ حتى نهاية عام ١٩٦٩ ، نجد أن الاشتباكات بكل أسلحة القوات البرية مستمرة .. والمعارك الجوية تدور من حين لآخر ... والهجمات الجوية ضد الأهداف العسكرية للطرفين لا تتوقف ... وإطلاق صواريخ ومدافع الدفاع الجوى من الطرفين لا ينقطع ... ونشاط قواتنا البحرية فى حراسة السواحل وقصف الأهداف البرية المعادية فى سيناء لا يهدأ ... الاغارات والكمائن تزداد حجماً وعمقاً ، وتتنوع وسائل نقل القوات المستخدمة فيها براً وبحراً وجواً ... الحرائق تشاهد فى سيناء وعلى الجانب الغربى للقناة ، والدخان الأسود المنبعث فيها يغطى قطاعات كبيرة ... القنابل التى لم تنفجر مبعثرة فى كل مكان ، والقنابل التى انفجرت تترك آثارها واضحة للعيان ... خسائر الطرفين بين قتلى وجرحى تزداد يوماً بعد يوم . إنها الحرب بكل ما فيها من تضحيات وبطولات .

وبينما كانت حرب الاستنزاف مستمرة بعنف بعد تدخل القوات الجوية فى المعركة ، كانت الجهود السياسية مستمرة على المستوى الدولى لايجاد حل لمشكلة الشرق الأوسط . وكان واضحاً أن الموقف السياسى لكل من أمريكا والاتحاد السوفيتى يتأثر بتطور القتال فى جبهة القناة .

ففى ١٩ سبتمبر ١٩٦٩ كتب الجنرال زابين سفير إسرائيل فى واشنطن تقريراً إلى بلاده يقول فيه[1] :

" إن الاتحاد السوفيتى ليس مستعداً لتقديم تنازلات للوصول إلى إتفاق مع أمريكا عن مشكلة الشرق الأوسط . إن مجلس الأمن القومى يضع فى اعتباره تأثير العمليات العسكرية الإسرائيلية ضد مصر ، وينظرون بعناية إلى تأثيرها على إستقرار نظام حكم عبد الناصر .

إن استمرار العمليات العسكرية بما فى ذلك الهجمات الجوية ، يمكن أن تحقق نتائج بعيدة المدى . إن موقف عبد الناصر يمكن أن يضعف ؛ وهذا بدوره يضعف النفوذ السوفيتى فى المنطقة . إن الشخص يكون أعمى أو أطرش أو غبيا إن لم ير أن الإدارة الأمريكية تؤيد عملياتنا العسكرية ، وأن هناك اتجاهاً يزداد نمواً وأن أمريكا مهتمة بتصعيد نشاطنا العسكرى لاضعاف موقف عبد الناصر . إن استعداد أمريكا لتزويدنا بأسلحة إضافية ، يعتمد أساسا على تصعيد نشاطنا العسكرى ضد مصر وليس الحد منها " .

إغارة الزعفرانة :

فى فجر يوم ١٩٦٩/٩/٩ ، وبينما كانت الجبهة مشتعلة بالقتال اليومى المستمر ، أنزل العدو سرية دبابات - عشر دبابات - على الشاطىء الغربى لخليج السويس فى منطقة صحراوية خالية من القوات المصرية . اتجهت القوة المعادية براً فى اتجاه الزعفرانه حيث تتمركز نقطة من أفراد الحدود - ٥ أفراد - وتمكنت من قتل هؤلاء الأفراد ، ثم قامت بتدمير موقع رادار على بعد حوالى ١٠٠ كيلومتر جنوب السويس . واستمرت قوة الاغارة - سرية دبابات مدعمة بوحدة فرعية من المشاة الميكانيكية - حوالى ست ساعات على الضفة الغربية لخليج السويس تحت حماية كثيفة من السلاح الجوى الذى كان يقدم لها المعاونة الجوية ، ثم عادت قوة الاغارة إلى الشاطىء الشرقى للخليج .

وتمهيداً لهذه الاغارة ، قامت مجموعة من الضفادع البشرية الإسرائيلية بإغراق

(١) الجنرال إسحق رابين - مذكرات رابين - طبعة إنجليزية - ص ١١٩ .

لنشى طوربيد مصريين كانا يتمركزان فى « مرسى السادات » على الشاطىء الغربى للخليج ، حتى يصبح الممر الملاحى مؤمناً خلال تنفيذ الاغارة .

وكان إغراق اللنشين موضع تحقيق ومساءلة شديدة ، كما كان رد فعل إغارة الزغفرانة عميقا فى القيادة العامة لتحديد مسئولية عدم اكتشاف قوة الإغارة أثناء وجودها على الشاطىء الشرقى للخليج قبل تنفيذ العملية ، وكذا مسئولية عدم اتخاذ إجراء إيجابى قوى لمواجهة القوة بعد نزولها على الشاطىء الغربى وبقائها عدة ساعات . وقد استغلت إسرائيل هذه الإغارة إعلاميا بطريقة مثيرة بعد أن سجلت لها فيلماً عرضته على الشعب الإسرائيلى .

وكان هناك مشروع تدريبى يتم فى الصحراء شرق القاهرة فى نفس اليوم مقررا أن يحضره الرئيس عبدالناصر . وعندما كنت فى أرض المشروع ، وكان عملى فى ذلك الوقت « نائب مدير المخابرات الحربية للاستطلاع » تلقيت بلاغا من اللواء محمد صادق مدير المخابرات الحربية بالقاهرة عن الإغارة ، وطلب منى سرعة تبليغ وزير الحربية .

تركت أرض المشروع ، وعدت لتبليغ وزير الحربية الفريق أول فوزى ورئيس الأركان لواء أحمد اسماعيل المرافقين للرئيس عبدالناصر ، وهم جميعا فى طريقهم إلى منطقة التدريب التى كانت شمال طريق مصرالسويس الصحراوى .

عندما سمع الرئيس عبدالناصر الخبر ، وهو داخل عربته وبجواره الفريق أول فوزى ، أبدى الرئيس ضيقه الشديد ، وتغيرت معالم وجهه بالغضب . عاد اللواء أحمد اسماعيل وأنا معه إلى القاهرة لمتابعة الموقف ، بينما استمر الرئيس عبدالناصر والفريق أول فوزى فى طريقهما إلى أرض التدريب .

ونتيجة لهذه الإغارة ، تقرر إعفاء اللواء أحمد اسماعيل من منصبه ، ولم يكن قد أمضى فيه ستة أشهر ، وتعين اللواء محمد صادق رئيسا للأركان . كما أعفى اللواء بحرى فؤاد زكرى من قيادة القوات البحرية وتولى قيادتها اللواء بحرى محمود فهمى ، بالاضافة لاجراءات أخرى شديدة اتخذت فى المستويات الأدنى .

إغارة فى ميناء إيلات :

وتنفيذاً لمخطط الإغارات ، قامت مجموعة خاصة تسمى « المجموعة ٣٩ » بقيادة العقيد ابراهيم الرفاعى باغراق وإصابة ثلاث سفن إنزال بحرية اسرائيلية يوم ١٦ نوفمبر ١٩٦٩ فى مبناء إيلات .

والعقيد ابراهيم الرفاعى من رجال الصاعقة الذين يتصفون بالشجاعة النادرة ، وإعطاء القدوة والمثل لمرءوسيه أثناء تنفيذ العمليات الفدائية الكثيرة التى قاموا بها . لقد كانت المجموعة التى تعمل مع ابراهيم الرفاعى من المقاتلين الأشداء ، وعلى درجة عالية من الكفاءة القتالية والروح المعنوية العالية ، وإذا كلفت المجموعة أو جزء منها بعمل ما كان لابد من تنفيذه مهما كانت المخاطر والصعاب .

لقد قامت هذه المجموعة بالكثير من العمليات ذوات الطابع الخاص التى تتسم بالفدائية خلال مرحلتى الدفاع النشط والاستنزاف . وكانت عملية ميناء إيلات إحدى عملياتها التى تطلبت منها إعدادا طويلا فى سرية مطلقة وشجاعة كبيرة فى التنفيذ .

وكان رد فعل هذه العملية شديدا فى إسرائيل للخسائر المادية والبشرية التى لحقت بها ، والأهم من ذلك أنها كانت رمزا لقدرة القوات المصرية للوصول إلى أحد الموانى البحرية الإسرائيلية وتنفيذ مثل هذه العملية الجريئة .

وامتداداً لجهود المجموعة ٣٩ ، شاء القدر أن تقوم المجموعة بإحدى عملياتها الفدائية خلال حرب اكتوبر ١٩٧٣ استشهد فيها العقيد ابراهيم الرفاعى ، ومنح اسمه وسام « نجمة سيناء » . وتخليدا لذكراه ، وحتى يظل رمزا للضابط والقائد المصرى ، أطلق إسمه على دفعة من الدفعات التى تخرجت فى الكلية الحربية بعد حرب اكتوبر .

الأعمال القتالية فى عام ١٩٦٩[1] :

وفى مساء يوم ٦ يناير ١٩٧٠ ، عقد المجلس الأعلى للقوات المسلحة برئاسة الرئيس عبد الناصر اجتماعاً ، قدم فيه الفريق أول فوزى تقريراً عن موقف القوات

(١) فريق أول محمد فوزى – حرب السنوات الثلاث ٦٧ / ١٩٧٠ – ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

المسلحة حتى آخر عام ١٩٦٩ ، حتى تكون الصورة الحقيقية للموقف العسكرى واضحة أمام الرئيس .

اوضح التقرير النقص المطلوب استكماله من الطيارين والطائرات القاذفة طويلة المدى للردع الجوى ، وكذا النقص الظاهر فى قوات ومعدات الدفاع الجوى خاصة فى الصواريخ سام متوسطة الارتفاع . وتضمن التقرير أيضاً القدرة والكفاءة القتالية والروح المعنوية لقوات الجبهة ، وذكر إحصائية عام ١٩٦٩ وهى :

- قام العدو بحوالى ٣٥٠٠ طلعة جوية لضرب وسائل الدفاع الجوى وقوات الجبهة ، واستخدم العدو أحسن طائراته فى المعارك الجوية التى حدثت مع طائراتنا ... وكانت خسائرنا فى الأفراد ١٦ ضابطاً ، ١٥٠ رتباً أخرى استشهاداً ، أما الجرحى فكانوا ١٩ ضابطاً ، ٢٩٩ رتباً أخرى .
- خسائر العدو كانت ١١ طائرة مختلفة الأنواع (٥ مروحية - ٢ ميراج - ٣ سكاى هوك - ١ مستير) وأسر ضابط إسرائيلى ، وقتلنا وجرحنا أعداداً لا يمكن حصرها إلا من البلاغات الرسمية أو الإذاعات الأجنبية أو كما أذاع موشى ديان عن خسائر إسرائيل من إبريل ١٩٦٩ حتى نوفمبر ١٩٦٩ والتى قال إنها ١٣٣ قتيلاً ، ٣٢٠ جريحاً .
- قامت قواتنا الجويه بعدد ٢٩٠٠ طلعة جوية للحماية ، منها ١٧٠ طلعة ضد أهداف أرضية ، ٧٠ طلعة استطلاع جوى . كما تمت ٢٢ معركة جوية اشتركت فيها ١١٠ طائرات مقاتلة مصرية ضد ١٣٠ طائرة إسرائيلية . وكانت خسائرنا ٢٣ طائرة ، وخسائر العدو ١٤ طائرة .

استمع الرئيس عبد الناصر خلال اجتماعات ثلاثة (٦ ، ٧ ، ١٠ يناير ١٩٧٠) إلى قادة القوات المسلحة ، لمس فيها الرئيس بنفسه استعداد القوات المسلحة للاستمرار فى تصعيد العمليات العسكرية بروح قتالية عالية ... كما انتهى الرئيس إلى ضرورة الضغط على الاتحاد السوفيتى لاستكمال النقص المزمن فى الدفاع الجوى ووسائله ومعداته خاصة الصواريخ ، وكذا استكمال عدد الطيارين والطائرات المتطورة وطائرات الردع .

الغارات الجوية فى عمق مصر :

وبدأت مرحلة جديدة فى تصعيد حرب الاستنزاف ، وكان تطوراً هاماً وخطيراً

في هذه الحرب ، عندما بدأت إسرائيل فى قصف الأهداف العسكرية والمدنية فى عمق مصر إعتباراً من ٧ يناير ١٩٧٠ .

كانت الطائرات الإسرائيلية تقترب من أهدافها على ارتفاع منخفض جداً ، الأمر الذى يجعل استخدام أنواع الصواريخ المضادة للطائرات المتيسرة فى ذلك الوقت غير مؤثر ضدها . كما أن القوات الجوية – حتى ذلك الوقت – لم تكن قادرة على منع الطائرات الإسرائيلية من الوصول إلى أهدافها أو تدميرها عند وصولها لتلك الأهداف .

لقد انتهى عام ١٩٦٩[١] " والقوات المسلحة المصرية تعانى من متاعب الحرب الجوية التى بدأت فى ٢٠ يوليو ١٩٦٩ بإقحام السلاح الجوى الإسرائيلى فى المعركة ، خاصة بعد الأضرار التى لحقت بوحدات الدفاع الجوى فى جبهة القناة وبعد أن أصبح الطريق مفتوحاً أمام الطائرات الإسرائيلية إلى عمق مصر . كما أن القوات الجوية المصرية لم تكن قد استكملت مرحلة إعادة البناء ، كما أنها لم تكن مزودة بالطائرات الحديثة القادرة على التصدى للطائرات الإسرائيلية بما تملكه من قدرات وإمكانات . ففى هذا الوقت لم تكن القوات الجوية تملك أى طائرة قاذفة مقاتلة أو قاذفة قادرة على تهديد عمق إسرائيل أو أى هدف داخل الأراضى الإسرائيلية أو حتى الوصول إلى شرق سيناء . لقد كانت إسرائيل تعرف هذه الحقائق وكانت مطمئنة إلى أن أراضيها ليست مهددة من جانب القوات الجوية المصرية .

ومن ناحية أخرى فقد أدركت القيادة المصرية فى ذلك الوقت أن تقديراتها بشأن موقف إسرائيل من حرب الاستنزاف كانت أكثر تفاؤلاً ، وأنها لم تضع فى حساباتها احتمال أن يكون رد إسرائيل هو القيام بشن « حرب استنزاف مضادة » على هذا المستوى ، تزج فيها بما تملكه من إمكانات جوية كبيرة ، الأمر الذى شكل مفاجأة غير متوقعة للقيادة العامة المصرية ... والذى أدّى إلى قلب الموازين والحسابات على المدى القصير . أما على المدى البعيد ، فقد كان لهذا التصرف الإسرائيلى أثره الكبير فى إقامة حائط الصواريخ الذى لعب دوراً حاسماً فى حرب أكتوبر ...

وليس ثمة شك فى أن الغارات الإسرائيلية قد سببت للقوات المصرية خسائر كبيرة.

(١) لواء طه محمد المجدوب – هزيمة يونيو من النكسة حتى حرب الأستنزاف – ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

فى الأفراد والأسلحة والمعدات ، ولكن إسرائيل – برغم ذلك – فشلت فى إرغام مصر على وقف حرب الاستنزاف أو تخفيضها ... ولذلك فإن قرار إسرائيل بشن غارات العمق ضد مصر ، قد شكل نقطة تحول هامة ، حين أدى إلى قرار مضاد من الرئيس عبد الناصر بمواجهة هذا الموقف وإصراره على ضرورة إيجاد حل له مع الاتحاد السوفيتى " ..

□ □ □

بدأت إسرائيل غاراتها ضد الأهداف العسكرية والمدنية المصرية باستخدام الطائرات الأمريكية سكاى هوك وفانتوم مع تركيز الهجمات ضد الأهداف العسكرية القريبة من القاهرة وبعض مدن الدلتا . ففى يناير ١٩٧٠ أغار العدو على مناطق التل الكبير وإنشاص ودهشور والمعادى . وفى فبراير وجهت إسرائيل هجماتها الجوية على منطقة أبو زعبل وحلوان ، وكانت الخسائر المصرية فى منطقة أبو زعبل حوالى سبعين شهيداً من المدنيين . وفى أبريل أغارت الطائرات الإسرائيلية على مدرسة بحر البقر حيث استشهد لنا حوالى ثلاثين تلميذاً .

لقد كان الهدف السياسى من هذه الغارات الجوية فى عمق مصر ، هو الضغط المعنوى المباشر على الشعب المصرى ، وإظهار القيادة السياسية بالضعف ، وإرغامها على إيقاف حرب الاستنزاف . وكانت هذه الغارات مصحوبة بتهديدات إسرائيلية ، تعنى أنه طالما أن القوات المسلحة المصرية لم تقتنع بعدم جدوى القتال فإن هذه الغارات قد تقنع الشعب المصرى بعدم جدوى استخدام القوة المسلحة لتحرير الأرض . وأعلنت جولدا مائير يوم ١٣ يناير ١٩٧٠ صراحة أنها لا ترى فرصة للسلام ما دام عبد الناصر فى الحكم ، ولذلك فإن سقوط عبد الناصر والنظام الذى يمثله يجب أن يسبق أى حديث عن السلام . ولذلك فإن الهدف السياسى الذى كانت تسعى إسرائيل لتحقيقه هو إيجاد خلل شديد فى الجبهة الداخلية المصرية ، ولكن النتيجة كانت زيادة إصرار الشعب المصرى على الصمود بثبات .

أما من الناحية العسكرية ، فقد كانت تهدف إسرائيل إلى إظهار عجز القوات المصرية عن حماية الدولة ، ومنعها من إنشاء قواعد للصواريخ المضادة للطائرات فى جبهة القناة ، حتى تظل قواتنا البرية تحت تهديد مستمر من السلاح الجوى

الإسرائيلى ، وبالتالى تتمكن إسرائيل من إيقاع أكبر قدر من الخسائر فى آلة الحرب المصرية .

وبرغم ذلك لم تتوقف الأعمال العسكرية ضد إسرائيل ، فقد خاضت قواتنا « معركة شدوان » يوم ٢٢ يناير ١٩٧٠ بنجاح ، وهى جزيرة فى البحر الأحمر أمام ميناء الغردقة . كما تعددت الأعمال القتالية فى جبهة القيادة بالقيام بأعمال الاغارات البرية والكمائن في سيناء لتدمير بعض مواقع العدو وتكبيده الخسائر فى الأفراد والحصول على الأسرى .

كان ذلك يتم فى ظل حقيقة أن العدو لديه التفوق الجوى الواضح ، الأمر الذى يدعو إلى سرعة الحصول على أسلحة ومعدات لمواجهة هذا الموقف ، وبصفة خاصة تلك الأسلحة والمعدات المطلوبة للدفاع الجوى عن مصر وقواتها المسلحة .

وللحد من الخسائر التى تلحق بالقوات المسلحة ومنشآتها العسكرية ، فقد وضعت القيادة العامة خطة سميت « خطة الانتشار » ، والهدف منها هو توزيع الوحدات العسكرية والمنشآت التعليمية على مناطق شاسعة داخل وخارج الجمهورية . ولما كانت السودان وليبيا تمثلان العمق الاستراتيجى الطبيعى لمصر ، فقد رأت القيادة المصرية توزيع وانتشار بعض الوحدات المصرية فيهما حتى تكون بعيدة عن مدى عمل الطائرات الإسرائيلية خاصة طائرات الفانتوم . وبموافقة الدولتين تم نقل الكلية الحربية إلى منطقة جبل الأولياء بالقرب من الخرطوم فى السودان . كما تم نقل الكلية البحرية إلى طبرق فى ليبيا ، ونقل الكلية الجوية إلى مطار جمال عبد الناصر هناك (مطار العظم فى ليبيا) . ولانتشار القطع البحرية غير المطلوبة فى الموانى المصرية ، فقد أرسلت إلى موانى بنى غازى وسرت فى ليبيا وبور سودان فى السودان فضلاً عن استخدام مراسى وموانى البحر الأحمر فى سفاجا والقصير ورأس بناس . كما نشرت بعض الوحدات فى الوجه القبلى ، حيث نقلت كلية الضباط الاحتياط من منطقة القناة إلى إسنا بمحافظة قنا .

□ □ □

لقد أرادت إسرائيل بالحرب الجوية الكثيفة التى بدأتها فى يناير ١٩٧٠ التصدى بحسم للقدرة العسكرية المصرية ، بعد أن استردت ما فقدته عام ١٩٦٧ ، وتغيرت كفاءتها القتالية إلى الأفضل فى كثير من الجوانب العسكرية . وما من شك أن الولايات

المتحدة لعبت دوراً هاماً فى تشجيع إسرائيل للقيام بالحرب الجوية بما فى ذلك « غارات العمق » ، وذلك عن طريق تزويدها بالأسلحة الهجومية والمعدات الالكترونية ، وفى نفس الوقت لم تعترض أمريكا سياسياً على العمل الذى تقوم به إسرائيل فى عمق مصر ، بل كانت ترحب به . وفى هذا الصدد ، كتب رابين سفير إسرائيل فى واشنطن إلى حكومته عن رد فعل هذه الغارات الجوية قائلاً[1] :

" كان هذا اليوم نقطة تحول تحررت فيه الإدارة الأمريكية من شعورها بالمرارة لأنها تؤيد الطرف الخاسر فى الشرق الأوسط ، الأمر الذى أضعف موقفها فى المنطقة . وعندما دعانى سيسكو (وكيل وزارة الخارجية الأمريكية) للغداء يوم ١٣ يناير ١٩٧٠ ، لم يكن فى حاجة لأن يقول إن الإدارة الأمريكية ترحب بهذه الغارات الجوية . قطعت أمريكا المناقشات مع الاتحاد السوفيتى ولم تقترح استئناف انعقادها ، وأصبح الرأى العام الأمريكى متعاطفاً مع إسرائيل ، وازداد الشعور المؤيد لإسرائيل قوة يوماً بعد يوم . ولاحظت نفس الشعور داخل الإدارة الأمريكية " .

وقال رابين أيضاً :

" لم يصدر أى بيان رسمى أو تعليق من الحكومة الأمريكية عن اعتراضها أو عدم موافقتها أو إدانتها لهذه الغارات فى العمق ، الأمر الذى يوضح موافقتها وتأييدها لها " .

الدعم العسكرى السوفيتى لمصر :

استشعر الرئيس عبد الناصر خطورة الموقف منذ بدأت إسرائيل فى قصف الأهداف المدنية والعسكرية فى عمق الدولة ، فسافر إلى موسكو يوم ٢٢ يناير ٧٠ وظل بها حتى يوم ٢٥ لشرح الموقف للاتحاد السوفيتى ، وطلب أسلحة ومعدات دفاع جوى - صواريخ وطائرات ورادارات - أكثر تقدماً مما كان متيسراً لدينا حينئذ .

لقد كان لقاء القمة المصرى السوفيتى ، الذى عقد فى موسكو بين الرئيس عبد الناصر والرئيس بريجينيف ، من أخطر لقاءات القمة بين الدولتين ، نظراً للآثار السياسية والعسكرية الهامة التى ترتبت عليه سواء على المستوى المحلى أو المستوى الدولى . لقد كان الهدف الرئيسى من هذه الزيارة هو شرح الموقف العسكرى فى

---

(١) إسحق رابين - مذكرات رابين - طبعة إنجليزية - ص ١٢٩

جبهة القناة بعد التطورات التى حدثت بعد زج السلاح الجوى الإسرائيلى فى حرب الاستنزاف الدائرة ، والحصول على موافقة الاتحاد السوفيتى على تزويد مصر بنظام متكامل ومتطور للدفاع الجوى حتى يمكن مواجهة التفوق الجوى النوعى والكمى لإسرائيل ، وبالتالى تتحمل من الخسائر ما يجبرها على وقف غاراتها الجوية ضد عمق الدولة .

كان ذلك يتطلب وجود طائرات مقاتلة اعتراضية قادرة على اعتراض الطائرات الإسرائيلية – أمريكية الطراز – والاشتباك معها ومطاردتها بكفاءة . ويتطلب وجود شبكة حديثة من صواريخ الدفاع الجوى . ويحتاج لوجود أجهزة رادار متطورة لشبكة الانذار ضد الارتفاعات المنخفضة ، وأجهزة الكترونية للتتبع والتوجيه والاعاقة .

□ □ □

ويقول الفريق أول فوزى الذى رافق ومعه لجنة عسكرية الرئيس عبد الناصر فى هذه الرحلة[1] :

" كان أهم لقاء تم مع القادة السوفيت منذ عام ١٩٦٧ ، إذ تعمد الرئيس عبد الناصر تصعيد المباحثات وتوتيرها لدرجة أنه هدد أمام القادة السوفيت بترك الحكم لزميل آخر يمكنه التفاهم مع الولايات المتحدة الأمريكية ، إذ أن الشعب فى مصر يمر الآن فى مرحلة حرجة . فإما نسلّم بطلبات إسرائيل أو نستمر فى القتال . وإن دفاعنا الجوى فى الوقت الحاضر لا يتمكن من منع غارات إسرائيل على العمق المصرى .

واسترسل الرئيس عبد الناصر فى طلب وحدات كاملة من صواريخ سام ٣ بأفرادها السوفيت ، وأسراب كاملة من الميج ٢١ المعدلة بطيارين سوفيت ، وأجهزة رادار متطورة للإنذار والتتبع بأطقم سوفيتية .

وبرر الرئيس عبد الناصر طلبه بأن الزمن ليس فى صالحنا لأن تدريب الأطقم المصرية والطيارين المصريين على الأسلحة الجديدة سوف يستغرق وقتاً طويلاً . كما كرر الرئيس طلب طائرات قاذفة لردع إسرائيل ، حيث أن مدى عمل الطائرات

(١) فريق أول محمد فوزى – حرب السنوات الثلاث ١٩٦٧ / ١٩٧٠ – ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

القاذفة المقاتلة الموجودة لدينا لا يمكّنها من الوصول إلى عمق إسرائيل مثل الطائرات سكاى هوك والفانتوم التى تضرب عمق مصر حالياً .

وفى جلسة المباحثات يوم ٢٥ يناير ١٩٧٠ ، أعلن الرئيس بريجنيف موافقة اللجنة المركزية ومجلس السوفيت الأعلى على طلب الرئيس عبد الناصر . وقال إنها أول مرة يخرج فيها جندى سوفيتى من الاتحاد السوفيتى إلى دولة صديقة منذ الحرب العالمية الثانية . وقرأ البيان الذى يتلخص فيما يلى :

١ - إمداد مصر بفرقة كاملة من صواريخ سام ٣ بأفرادها ومعداتها وأجهزتها وحملتها وأسلحتها المعاونة ، على أن تصل إلى موانىء مصر خلال شهر واحد ، وأن تعمل تحت القيادة المصرية لأغراض الدفاع الجوى عن العمق المصرى .

٢ - إمداد مصر بقوة ثلاثة لواءات جوية من ٩٥ طائرة ميج ٢١ معدلة بمحرك جديد ، بالقادة والطيارين والموجهين والفنيين السوفيت ، وأجهزتها وراداراتها للانذار والتوجيه والمعدات الفنية والعربات ، وأن توضع تحت القيادة المصرية للمساهمة فى الدفاع الجوى عن العمق المصرى على أن تصل خلال شهر . بالاضافة إلى ٥٠ طائرة سوخوى ٩ ، وعدد ١٠ طائرات ميج ٢١ تدريب ، وعدد ٥٠ موتور طائرة ميج ٢١ معدلة من نوع جديد لتركيبه فى الطائرات ميج ٢١ الموجودة فى مصر .

٣ - إمداد مصر بأربعة أجهزة رادار ب ١٥ لرفع كفاءة الانذار الجوى فى شبكة الدفاع الجوى المصرى .

٤ - تقوم مصر بتجهيز الدفاعات والتحصينات والمرافق الانشائية لهذه المعدات بحيث تكون جاهزة فى الأماكن التى تخططها القيادة العسكرية المصرية قبل وصول هذه المعدات السوفيتية إلى مصر .

٥ - يعتبر تواجد الجنود السوفيت فى مصر مؤقتاً لحين استكمال تدريب اللواءات المصرية من قوات الدفاع الجوى والقوات الجوية فى مراكز تدريب الاتحاد السوفيتى والجمهورية العربية المتحدة فى وقت واحد ، وعندئذ يعود الأفراد السوفيت إلى وطنهم .

وكرر الرئيس بريجينيف على واجبات لواءات الدفاع الجوى والقوات الجوية أن تكون فى عمق مصر "

□ □ □

ويمكن القول إن قرار الاتحاد السوفيتى بالموافقة على إرسال قوات سوفيتية إلى مصر ، كان قرارا هاما وتطورا حادا فى سياسته كاحدى القوتين العظميين فى العالم فى مواجهة سياسة الولايات المتحدة الأمريكية فى الشرق الأوسط . كما أن هذا القرار كان حازما فى دعم ومعاونة مصر عسكريا بجانب الدعم السياسى المستمر لها .

وفى الجانب المصرى ، فإن قرار مصر بطلب أسلحة سوفيتية يعمل عليها عسكريون سوفيت ، كان قرارا هاما وتطورا حادا فى سياسة مصر التى أصبحت أكثر اعتمادا على الاتحاد السوفيتى عسكريا وسياسيا .

وبوصول القوات السوفيتية ، والتى أطلقنا عليها إسم « القوات الصديقة » أصبح للاتحاد السوفيتى وجود بارز فى مصر . فالمستشارون السوفيت كانوا يساعدون فى العمل العسكرى من مستوى وزارة الحربية حتى مستوى الوحدات . والقوات الصديقة تساهم بالصواريخ واللواءات الجوية فى الدفاع الجوى عن الدولة . والوحدات البحرية السوفيتية تتمتع بالتسهيلات البحرية فى الموانى البحرية وبصفة خاصة الاسكندرية وبورسعيد . وتتمركز بعض الطائرات السوفيتية فى بعض المطارات المصرية للقيام بأعمال الاستطلاع الاستراتيجى . وهنا لابد من التنويه بأن « القوات الصديقة » كانت تتمركز فى عمق الدولة ، وتعمل فى مناطق بعيدة عن جبهة القناة ، وظلت قيادة الدفاع الجوى هى التى تتولى مسئولية الدفاع الجوى عن الدولة .

ولعلنا نتفق على أن زيارة الرئيس عبد الناصر للاتحاد السوفيتى خلال المدة من ٢٢ - ٢٥ يناير ١٩٧٠ ، وما صدر فيها من قرارات ، تعتبر نقطة تحول حاسمة فى مسار الصراع المسلح بين مصر وإسرائيل بعد ذلك . فقد جاء الدعم العسكرى السوفيتى فى وقت كانت مصر تواجه موقفا عسكريا حرجا أمام الحرب الجوية الإسرائيلية . كما أن هذا الدعم جاء بوحدات سوفيتية لأول مرة للمساهمة فى إقامة نظام دفاع جوى قادر على الوقوف فى وجه القوات الجوية الإسرائيلية التى تمثل أقوى عناصر الحسم والردع ضد العرب .

ولم يكن التوصل إلى مثل هذا الاتفاق أمرا سهلا بالنسبة لقبول مصر أوضاعا لم تكن قائمة من قبل ، كما أنه لم يكن سهلا بالنسبة لقبول الاتحاد السوفيتى الاقدام على هذه الخطوة المحسوبة فى أبعادها ونتائجها .

□ □ □

وفى الوقت الذى اتخذت فيه قرارات مؤتمر موسكو ، أرسل كوسجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى يوم ٣١ يناير ١٩٧٠ مذكرة شديدة اللهجة إلى الرئيس الأمريكى نكسون ، يطلب فيها إيقاف الغارات الجوية الإسرائيلية ، ويحمّل إسرائيل وأمريكا مسئولية استمرار القتال فى منطقة القناة وفى العمق المصرى ، محذرا أنه إذا لم توقف الغارات الجوية فى العمق المصري ، فإن الاتحاد السوفيتى قد يزود مصر بأسلحة متقدمة متطورة .

ورد عليه نكسون برسالة عنيفة[1] يرفض فيها وجهة نظر الاتحاد السوفيتى فى تطور الأحداث ، ويلقى مسئولية تطور الموقف العسكرى على عبد الناصر ، لأنه انتهك إيقاف إطلاق النار وبدأ حرب الاستنزاف . أما بالنسبة لتهديد الاتحاد السوفيتى بتقديم أسلحة متقدمة إلى مصر ، فقد أرسلت وزارة الخارجية الأمريكية إلى وزارة الخارجية السوفيتية رسالة تحذير من أن أمريكا على استعداد للتفاهم لإيقاف إطلاق النار والاتفاق على الحد من سباق التسلح فى الشرق الأوسط . وإذا صعد الاتحاد السوفيتى الموقف بتزويد الدول العربية بأسلحة متقدمة متطورة ، فإن أمريكا ستضطر لإعادة النظر فى سياستها لتسليح إسرائيل .

كان معنى ذلك أن أمريكا تهدف إلى استمرار القصف الجوى الإسرائيلى فى عمق مصر ، حتى توقف مصر – مرغمة – حرب الاستنزاف . إلا أن الغارات الإسرائيلية قد توقفت – بعد ذلك فى أبريل – ضد عمق مصر ، ولكن الاشتباكات الجوية والبرية بين مصر وإسرائيل استمرت حتى توقفت فى أغسطس ١٩٧٠ بمبادرة وزير الخارجية الأمريكية روجرز .

وبينما كانت أمريكا تفسر قرار مجلس الأمن ٢٤٢ نفس تفسير إسرائيل ، على أنه « مجرد مبادىء يتم التفاوض بشأنها » ، وبينما أعلن الرئيس نكسون فى تصريح له فى

---

(١) إسحق رابين – مذكرات رابين – ص ١٣٠ .

يناير ١٩٧٠ أن « السلام لا يمكن أن يقوم إلا على أساس الاتفاق بين الأطراف ، وهذا الاتفاق يمكن التوصل إليه فقط من خلال المفاوضات بينهما » . وفى ضوء غارات العمق ، قدمت أمريكا إلى مصر يوم ٢٢ فبراير ١٩٧٠ رسالة[١] جاء فيها :

" إن الولايات المتحدة تشعر بالقلق بالنسبة للغارات الإسرائيلية فى العمق المصرى ، وتشعر بالأسف على الضحايا الذين يسقطون نتيجة لهذه الغارات الإسرائيلية . وعلى ذلك فإن الولايات المتحدة تنصحنا أن نعلن فى الحال قبولنا وقف إطلاق النار كما حدده قرار مجلس الأمن فى يونيو ١٩٦٧ .

وفى هذه الحالة لا يجب أن نربط قرار وقف إطلاق النار بالانسحاب الإسرائيلى . أما إذا لم نقبل ذلك فإن الغارات الإسرائيلية فى العمق المصرى وضد السكان المدنيين أساساً سوف تستمر ، وربما بصورة أكبر مدى يتزايد ليشمل أهدافاً قد تضر بالاقتصاد المصرى بصورة أساسية " . وكان ذلك تهديداً صريحاً وتطوراً محيراً من الإدارة الأمريكية .

حائط صواريخ الدفاع الجوى :

واستعداداً لوصول أسلحة ومعدات الدفاع الجوى الجديدة من الاتحاد السوفيتى ، كان لا بد من بناء التحصينات اللازمة تحت ضغط غارات العدو الجوية نهاراً وليلاً .

بدأ تنفيذ وإنشاء التجهيزات الهندسية والدفاعية للدفاع الجوى والقوات الجوية ، وهو عمل اشتركت فيه جميع شركات المقاولات المصرية للبناء والتشييد والطرق بالتعاون مع سلاح المهندسين العسكريين بقيادة اللواء مهندس جمال محمد على . ودار الصراع رهيباً بين إرادتين ، العدو يركز كل مجهود سلاحه الجوى لمنع مصر من إنشاء التحصينات والمواقع تمهيداً لإدخال الصواريخ المضادة للطائرات فى منطقة قناة السويس ، بينما تحشد قوات الدفاع الجوى المصرى كل ما تملك من أسلحة المدفعية المضادة للطائرات لحمايتها حتى يستمر الإنشاء والبناء .

تطلب هذا العمل جهداً ضخماً وتضحيات كبيرة فى أرواح العاملين المدنيين والعسكريين تحت أصعب الظروف . كانت الطائرات الإسرائيلية تهاجم الإنشاءات لتدمير أو إيقاع الخسائر فيما يتم إنشاؤه ، وبمجرد انتهاء الغارة الجوية يستأنف

---

(١) محمود رياض – مذكرات محمود رياض – ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

العاملون عملهم ، ولا يتوقف العمل نهاراً وليلاً تحت حماية المدفعية المضادة للطائرات والطائرات من طراز ميج .

لقد تحولت عملية إنشاء تحصينات وتجهيزات مواقع صواريخ الدفاع الجوى إلى ملحمة وطنية أثبتت قدرة الإنسان المصرى وإرادته على البذل والعطاء ، وإصراره على تنفيذ مهامه مهما كانت المصاعب والتضحيات . لقد وصل حجم الأعمال الهندسية التى نفذت لصالح الدفاع الجوى بين القاهرة ومنطقة القناة وباقى انحاء الجمهورية ١,٦ مليون متر مكعب من الخرسانة المسلحة ، ١,٤ مليون متر مكعب من الخرسانة العادية ، ١٢,٥ مليون متر مكعب من أعمال الأتربة ، ومئات الكيلومترات من الطرق الاسفلتية والطرق المثبتة بمواد تثبيت . وبلغ حجم الانفاق فى الأيام الأولى من العمل حوالى مليون جنيه فى اليوم . كانت هناك خطة تنفيذ عمل مواقع الصواريخ خلال أربعين يوماً ، وصمم العاملون على إتمامها ، وكان لهم ذلك بعد ٣٩ يوماً . إنه الإنسان المصرى بأصالته .

وصلت القوات الصديقة ، وأخذت مواقعها المخددة فى العمق . وكان على قوات الدفاع الجوى المصرى أن تحتل مواقعها غرب القناة ، فأنشأت واحتلت نطاقات الدفاع الجوى بالصواريخ واحداً بعد الآخر فى اتجاه القناة .

وعندما كانت إسرائيل تركز هجماتها ضد مواقع الصواريخ ، كتشفت أن بعض طائرات الميج التى تطير فى العمق يوم ١٨ أبريل ١٩٧٠ يقودها طيارون سوفيت عن طريق المحادثات اللاسلكية التى تتم بينهم ، فامتنعت الغارات الجوية الإسرائيلية فى العمق منذ ذلك التاريخ .

وفى صباح يوم ٣٠ يونيو ١٩٧٠ ، فوجئت الطائرات الإسرائيلية بوجود صواريخ الدفاع الجوى المصرى فى مواقعها تكبدها خسائر لم تكن فى الحسبان . جن جنون قيادة السلاح الجوى الإسرائيلى ، وأرسلت طائراتها لاختراق هذا الخط وتدميره ، إلا أن النتيجة كانت مزيداً من الخسائر . فقد أسقطت قوات الدفاع ثلاث طائرات إسرائيلية يوم ١٩٧٠/٦/٣٠ ، ودمرت طائرتين يوم ٧/٢ وثلاث طائرات يوم ٧/٣ ، وهى كلها من أنواع فانتوم وسكاى هوك . ومن هنا بدأ الحديث فى إسرائيل عن تآكل السلاح الجوى الإسرائيلى ، وارتفعت الروح المعنوية لقواتنا المسلحة للنتائج التى حققتها قوات الدفاع الجوى بنجاح .

وفى الجانب الإسرائيلى ، صرخت جولدا مائير فى حيرة وهى تقول : « إن كتائب الصواريخ المصرية كعش الغراب ، كلما دمرنا إحداها نبتت أخرى بدلاً منها . إن المصريين زرعوا كل الأرض غرب القناة بالصواريخ ، والله وحده يعلم أين سيجد المصريون مكانا لزراعة أعداد أخرى بالمنطقة » .

مبادرة أمريكية لوقف إطلاق النار :

فى ظل تصاعد حرب الاستنزاف ، ونتيجة للتطور الذى حدث فى المنطقة بزيادة التواجد السوفيتى فى مصر ، بعد وصول « القوات الصديقة » ، وهو عامل جديد لا بد أن تضعه أمريكا في حساباتها السياسية . ونظراً لتصميم مصر على الاستمرار فى حرب الاستنزاف دون قبول الرأى الإسرائيلى والرأى الأمريكى بالمفاوضات المباشرة بين مصر وإسرائيل ، وتعبئة المشاعر المعادية لأمريكا فى العالم العربى . فى ظل هذه الظروف ، وجدت أمريكا أنه من الضرورى وضع حد للتصعيد العسكرى بين مصر وإسرائيل ، وذلك بالسعى لإيقاف اطلاق النار بمبادرة أمريكية .

ففى مقابلة[1] لايبان وزير خارجية إسرائيل مع الرئيس نكسون فى مايو ١٩٧٠ بحضور السفير الإسرائيلى رابين ووكيل وزارة الخارجية الأمريكية سيسكو ، حاول نكسون معرفة موقف إسرائيل بعد التغلغل السوفيتى فى مصر ، فوجه سؤالاً إلى إيبان هو :

« فى ضوء التغلغل السوفيتى ، هل موقف إسرائيل لا يزال كما هو ، وسبق أن سمعته من السفير رابين والذى قال فيه ، أعطونا الأسلحة والمعدات وسنقوم نحن بالعمل ؟ » .

أسرع رابين بالرد : نعم .
وعلق نكسون : حسنا . هذا ما كنت أريد معرفته .

ثم انتقل نكسون بالحديث عن الغارات الإسرائيلية فى عمق مصر ، وقال : « لو كانت المسألة هى أنتم والمصريون فقط لقلت يجب أن يتحملوها . إضربوهم بقوة بقدر ما تستطيعون . إنى أشعر بالارتياح فى كل مرة أسمع فيها اختراقكم لأراضيهم

(١) إسحق رابين — مذكرات رابين — طبعة إنجليزية — ص ١٣٧ .

وضربهم بقوة . إنى أتفق معكم أن الاتحاد السوفيتى ومصر يضعاننا – أمريكا وإسرائيل – أمام اختبار . ولكن المسألة ليست مصر وسوريا فقط ، فإن باقى الدول العربية تراقبنا أيضاً ، وليس عندى أدنى شك فى ذلك »

واستطرد نكسون قائلاً : « ليس أمامنا خيار . يجب أن نلعب اللعبة بحيث لا نفقد كل شيء فى الشرق الأوسط . إننا نريد مساعدتكم ، وعليكم أن تساعدونا ، دون أن يقع أى ضرر عليكم أوعلينا .. إننا نقف بجانبكم عسكرياً ، ولكن التصعيد العسكرى إلى ما لا نهاية لا يمكن السماح به . يجب أن نقوم بعمل سياسى » .

وفى رأى رابين فى تعليقه على ما دار فى هذه المقابلة أن « هذا التفكير الأمريكى كان خلف مبادرة روجرز فى ١٩ يونيو ١٩٧٠ » .

□ □ □

تقدمت أمريكا بمبادرة سميت « مبادرة روجرز » وتقضى المبادرة التى أعلنتها أمريكا يوم ١٩ يونيو ١٩٧٠ بإيقاف إطلاق النار بين مصر وإسرائيل لمدة تسعين يوما ، وأن يستأنف السفير يارنج عمله لوضع قرار مجلس الأمن ٢٤٢ موضع التنفيذ .

وافقت مصر وإسرائيل على قبول المبادرة ، على أن يسرى وقف النيران اعتبارا من الساعة الواحدة من صباح يوم ٨ أغسطس ١٩٧٠ بتوقيت القاهرة ولمدة تسعين يوما .

ونص الاتفاق على أن يمتنع الطرفان عن تغيير الوضع العسكرى فى داخل المنطقة التى تمتد خمسين كيلومتراً شرق وغرب القناة . ولا يحق للطرفين إدخال أو إنشاء أية مواقع عسكرية فى هذه المناطق ، ويقتصر أى نشاط على صيانة المواقع الموجودة وتغيير وإمداد القوات الموجودة فى هذه المناطق .

قامت مصر باستكمال تجهيز المواقع الضرورية لشبكة الدفاع الجوى ، وتم ذلك بسرعة ومجهود كبير فى ساعات الليل السابقة على الواحدة صباح يوم ٨ أغسطس – موعد سريان وقف إطلاق النار ، ووجدت إسرائيل نفسها صباح اليوم التالى أمام شبكة متكاملة من مواقع صواريخ الدفاع الجوى فى صورته النهائية دون خرق ببنود الاتفاق بمجرد سريانه . لقد كان عملا ممتازا قامت به قوات الدفاع الجوى ، لم تتصور إسرائيل أنه يمكن إنجازه فى هذا الوقت القصير . وبذلك فرضت قوات الدفاع الجوى الغطاء بالصواريخ لكل منطقة القناة ، وكان ذلك اللبنة الأولى فى صرح الانتصار الذى حققته القوات المسلحة فى حرب اكتوبر

وهكذا انتهت « حرب الاستنزاف » لتبدأ مرحلة الاعداد لحرب اكتوبر ١٩٧٣ .